(١٤)

عن المبذرين والشياطين

يقول الله تعالى عن المبذرين: ﴿ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴾ (الإسراء: ٢٧).

هذا بعد أن بيّن ربنا جل وعلا حق الوالدين وذوي القربى واليتامى والمساكين، ونهانا عن التبذير وهو إنفاق المالِ في غير الحق.

وإذا لم يتجه المالُ إلى غير الحق، استبقاه صاحبهُ للحق. أما إذا استبقاه اكتنازًا له دون أن يفيد هو منه، لا في تجارته أو استثمار، كان الاكتنازُ داخلاً في قول الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ (التوبة: ٣٤، ٣٥).

وإذا أدى حق الله في ماله كان قد زكّاه. والزكاة في اللغة النماء. وكأن الإنفاق منه في سبيل الله وتأدية حَق الله هو الوسيلةُ إلى نماء هذا المال. تمامًا كما يأخذ صاحب البذور جانبًا من المحصول الجديد، ليبذرَه لمحصول مقبل. ظاهر الأمر أن المجموع نقص بما اقتطع منه. وحقيقةُ الأمر أن البذور ستنمو وتثمر وتزكو.. فهذه كتلك.

وليس قول الله تعالى: ﴿ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾ وهو الذي جاء في ختام آية إيتاء ذوي القربى واليتامى والمساكين متعلقًا بالإيتاء.. لأن التبذير لا يوصف به بذل المال في حقه، ولو كان أكثرُ من حاجةِ من أعطيتَه المال.

جملة، ﴿ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾ معطوفة على جملة ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾

وقد قال بعضهم لمن رآه ينفق في وجوه الخير: لا خير في السَرَف، فأجابه المُنْفق: لا سَرَف (أي إسراف) في الخير.

إن الله جعل المال وسيلة لاقتناء ما يحتاج المرء في حياته من ضروريات وحاجيات وتحسينات. هذا التعبير الثلاثي - أي الضروريات والحاجيات

والتحسينات ـ مما نقرأ. في مطلع كتاب الموافقات للإمام الشاطبي (٧٩٠هـ) وهي مراتب ثلاث متدرجة: أولها: ما لا تقوم الحياة السوية إلاّ به، ثم ما يحتاجه الإنسان دون منزلة الضروريات، ثم ما يحسن به وجه الحياة. ولنقف قليلاً معه في هذا الكتاب يقول: (١: ٣٨) "فقد اتفقت الأمة، بل سائر الملل على أن الشريعة وُضعت للمحافظة على الضروريات الخَمس وهي: الدين والنفس والنسل والمال والعقل. وعلمُها عند الأمة كالضروري". وما يتوصل به إليها هو من الحاجياتُ، وما يرفع مستوى أدائها والقيام بما هو من التحسينات. وتجاوز هذه الحدود الثلاثة هو التبذير".

وحتى إذا كان الإنسانُ ذا وفرة.. فخيرٌ له أن يكونَ ما وراء ذلك موجَهًا إلى خير يعود على المحرومين من توفير مستوى الضروريات أو الحاجيات، ما استطاع إلى ذلك سبيلاً. والأمر ليس مجرد عطاء، وإنما ـ وبخاصة في عالمنا المعاصر ـ هو توفير فرص جديدة للعمل. وما أشد حاجة العالم الإسلامي إلى هذا كله. إننا نفهم الإحسان فهمًا ضيقًا إذا قصرناه على العطاء الذي يقدّمه القادر إلى المحتاج، وأكرم منه أن يعاونه على القيام بعمل إيجابي في الحياة. هكذا صنع المصطفى عليه الصلاة والسلام مع من جاءه يطلب إحسانًا فأعانه بأن وفّر له ما يحتطب به. فإن قبض اليد على الفأس والاحتطاب أكرم من بسطها لتنتظر الإحسان والصدقة.. قل هذا على مستوى أوسع في الإنشاءات الصناعية ونظائرها.

وبهذا تكون أموال الأمة في مجموعها عُدّة ومددًا لأبنائها جميعًا، وكل فرد فيها يعمل وفق قدراته ومواهبه. القوة قوتهم جميعًا. وعزة الوطن عزتهم جميعًا.

وإذا نظرنا إلى قول الله تعالى: ﴿ وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا ﴾ (النساء: ٥) نرى أن الله لم يقل "أموالهم" مع أنها أموال هؤلاء السفهاء فعلا.. ثم قوله تعالى بعد هذا عن اليتامى ﴿ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ﴾ (النساء: ٦) فأضافها إليهم حين صاروا رشداء. وما مُنع السفهاء من التصرف في أموالهم إلا خشية التبذير. ولذلك لو تصرّف السفيه في شيء من ماله تصرف السداد والصلاح لَمضَى.

وجاء النهي عن التبذير والتحذير منه بأربعة أوجه يقوي بعضها بعضها:

الأول: النهي المباشر في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُبَذِّرْ ﴾

الثاني: المفعول المطلق لتأكيد النهي وهو قوله تعالى: ﴿ تَبْذِيرًا ﴾

الثالث: تعليل المبالغة في النهي بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾

الرابع: تأكيد التحذير بجملة ﴿ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴾

أما الوجه الأول والثاني فواضحان أمامنا، ولنا وقفة مع الثالث والرابع.

جملة ﴿ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾ تفيد الملازمة بين المنذرين والشياطين، شأن الأخ الذي لا يفارقه أخاه. وأنت إذا قلت فلان أخو علم أي منتصف به، وأخو سفر أي كثير السفر. وكأن الجملة تؤكد الصلة الوثيقة بين المبذرين والشياطين. لماذا؟ إن التبذير الذي يدعو إليه الشيطان إما إنفاق في الفساد وإما إسراف يستنزف المال في اللذات والمظهريات، فيعطل الإنفاق في الخير. وهذا ما يجعل المبذرين من جند الشيطان وأعوانه.

والتبذير مع وجود المال اعتياد، يصبح به المرء مدمنًا لأخلاق ذميمة لا يستطيع منها فكاكًا، وأساليب في الحياة، إذا كان قادرًا عليها أو على بعضها مع وفرة ماله، فسرعان ما تصبح قيودًا ثقيلة عليه إذ قل المال، وتهوي به مسرعة إلى الإفلاس أو الضياع. ففي الآية إيجاز حذف تقديره "لا تبذر تبذيرًا فتصير من المبذرين" ﴿ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾

يأتي بعد هذا التحذير الرابع ﴿ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴾. ويمكن أن يكونَ هذا كفرًا بنعمة الله، ذلك لأن الله تعالى جعل للحصول على المال وإنفاقه قواعد وأساليب جاءت في القرآن الكريم وبينتها السنة المطهرة. والخروج عليها كفرٌ بنعمة الله تعالى.

أو قد يُفضي به التبذير والغواية إلى الكفر الصريح كما نجد في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ (الأنعام: ١٢١). وبهذا كان المبذر مؤاخيًا للشيطان، وكان الشيطان كفورًا، فكان المبذّر كفورًا بالمآل أو بالدرجة القريبة.

قرينة أخرى تربط بين المبذر والشيطان...

لغويًا: البذر أول ما يخرج من الزرع، وهو أيضًا ما عُزِل من الحبوب للزرع. تقول بذرت البذر زرعته. وفي البذر تفريق البذور في الأرض. ومن هذا التفريق يأتي

معنى التبذير أي الإنفاق خُصِّص للإسراف كأنما ينفقه ها هنا وها هنا.. وإذا كان الزارع ينثر بذوره في أرض طيّبة، فإن المبذّر ينفق ماله في المعاصي ولا يبقي لنفسه ما يقتات به.. والبذير من الناس هو الذي لا يستطيع أن يمسك سرّه، وكأنما يوزع وينثر أسراره بين الناس.

أما مادة شطن: فالشَطَن هو الحبل الطويل يُستقى به وتشد به الخيل. والبئر الشطون الملتوية العوجاء. والحرب الشطون هي العسرة الشديدة. والرمح الشطون الطويل الأعوج.

والشيطان معروف، ويُطلق على كل عات متمرد من الجن والإنس والدواب شيطان.. وشيطن الرجل إذا صار كالشيطان، وفعل فعله..

مادة التبذير تدل على التفريق دون قاعدة.. ومادة الشيطان تدل على البعد والعوج والالتواء والخبث.. وإذا رجعت إلى لسان العرب وجدت صفات السوء المرتبطة بمادة شطن أكثر بكثير من الصفات المرتبطة بالتبذير ومادته.. وفي الجانب اللغوي يبدو التحذير القوي من انحدار المبذرين إلى مهاوي الشياطين، بكل ما تحمل صفاتهم من بعد عن الحق والتواء، وخبث في السلوك، وتسلل إلى الفكر وتبديل في قواعده.. وفي هذا نستطيع أن نفهم معنى الحديث، "إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم" أي يتسلط عليه ويوسوس له، لا أنه يدخل في جوفه.. مفهوم ﴿ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾ إنما هم إخوان سلوكٍ معيّن هذه صفاته التي تلتقي فيها اللغة والدين معًا، وإن التبذير ينحدر بهم إلى هذا المستوى الشيطاني، أعاذنا الله جميعًا منه.

الإعراض والتوازن:

يقول الله تعالى: ﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُورًا ﴾ (الإسراء: ٢٨).

يقول الله تعالى: وإن تُعْرِض يا محمد عن هؤلاء الذين أمَرْتُك أن تُؤتيَهم حقوقهم، وهم ذوو القربى والمساكين وأبناءُ السبيل، عند مسألتِهم إياك، حياءً منهم ورحمةً لهم لأنك لا تجِدُ ما تنفِقه عليهم أو انتظارَ الرزقِ من الله تعالى، وترجو أن يُيَسِّر الله لك ما تَفُكُ به كُرَبَهُم فلا تُؤيسْهُم، ولكن قل لهم قولاً

ميسورًا ووَعدًا جميلاً، بأن تقول: سيرزق اللّه فأعْطِيَكم، وما أشبَهَ ذلك من القولِ اللين غير الغليط، كما قال جل ثناؤه: ﴿ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾

ولا زلت أذكر صديقًا توفاه اللّه تعالى، وكان عِصاميًا مرّت عليه في طفولتِه وصدر شبابه أيامٌ قاسية، ثم فتح اللّه عليه وكان رحمه اللّه كريم النفسِ سَخيًا، بارًا بمن معهُ وتحتَ يدِه من العمال في مؤسسته، وأحسن إلى الناس كما أحسن اللّه إليه، ولكن اتسع في مشروعاته إلى ما فوق طاقتِه العملية، ودخل مَعَهُ في أمره من كانوا غير أهْلٍ لكل ما أوْلاهم من ثقة، وإن كانوا من ذَوي قرباه.. وبدأ الخطُ البيانيُ في النزول، وكنا ننْصحه بأن يُقَصِّرَ خطوطَ نشاطِه إلى ما دونَ قُدْرَتِه، حتى يكونَ لديه رصيدٌ للطوارئ.. وفي يوم دَخلتُ عليه مكتبه، فوجدت لوحة جديدة مُعَلقةً فيها هذا البيت من الشعر:

إن الكريم ليُخفي عنك عُسْرَته حتى تراه غَنيًا وهو مَحْدود

وأطال النظر إليها، وأطال النظر إليّ.. وكانت إجابته لمن تعودوا منه العَطَاء والنوال أن يُطِيل النظر إلى اللوحة، فتتجهُ أنظارُهم إلى حيثُ يَنْظُر. ثم يستأذنون، ويدعون له بالفرج القريب.

هذا نوع من الإعراض الذي لا يجْرَحُ شعور ذوي القربى والمساكين وأبناء السبيل. والإعراض ضدُ الإقبال، مشتق من العُرض أي الجانب يقول اللّه تعالى:

﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ﴾ (الإسراء: ٨٣).

وهذا هو الإعراض المذموم.. لأنه إعراضُ القادرِ على العطاء.

وأما الإعراضُ الواردُ في هذه الآية، فإعراضُ الحياء من رَدِّ المُحْتاج وهو هنا مشترط بشرطين:

الأول: أن يكون إعراضًا لابتغاءِ رزق من اللّه. وكلمةُ "رحمة" الواردة في الآية أوسع مَدَى من رزق أو عطاء.

الثاني: أن يكون معه قولٌ لين في الاعتذار.

ففي الآية جانبان: ماديٌ ونفسي. والمادي بدوره جانبان: إما وعدٌ بإعطاء أو توجيهٌ إلى باب رزق... وهنا تفتح لنا الآية بابًا كريمًا من التعامل في المجتمع.

قول الله تعالى: ﴿ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا ﴾ لا تحمل معنىً سلبيًا من انتظار رزق يأتي وَحْده، بقدرِ ما تحملْ توجيهَ المسلمين إلى السعي والعمل والكسب.. وحين تعتبرُ الآية الكريمة العطاءُ، رحمة من الله، فالسعيُ للحصولِ على هذهِ الرحمة هو من الرحمةِ أيضًا. ومن هنا يأتي تقديرُ الإسلام للعملِ وبذلِ الجهد، وبه يتسعُ مفهومُ الآيةِ من العونِ الفرديِ إلى التعاونِ الجماعي الذي تقوم فيه المؤسساتُ الخاصةُ والدولةُ بنصيبٍ كبير:

على مستوى الدولة، يمكن أن نرجع إلى حديث رسول الله ﷺ: "أنا أوْلى بكل مؤمن من نفسه، فمن ترك دينًا أو ضيْعةً لا عائل لها فإليّ، ومن ترك مالاً فلورثته.." رواه الشيخان وغيرهما عن المقدام. (الجامع الكبير ١: ٣٢٩).

الرسول في هذا الحديث هو ممثلُ الدولةِ المسئولة عن كفالة المحتاجين والغارمين. ولن تستطيع أن تقوم بذلك إلا إذا كانت مواردُها تسمحُ بذلك. ولن تسمح الموارِدُ إلا بزيادةِ الإنتاج الوطني، وفتح أبواب العمل أمام القادرين، والإبداع أمام الأجيال الجديدة لتشارك مشاركة فعّالة في بناء الحياة.

وأود أن أرْجع هنا إلى فقرات من وصية سيدنا علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه إلى الاشتَر النخعي عندما ولاه مصر. وهي أجمع وصاياه في الإدارة، وفيها يبيّن العلاقة بين العدلِ والإنتاج وعمارةِ الأرض. يقول: "وتفقد أمْرَ الخراج بما يُصلِحُ أهلَه، فإن في صلاحِه وصالحِهم صلاحًا لمن سواهم. ولا صلاحَ لمن سواهم إلا بهم. لأن الناس كلهم عيالٌ على الخراج وأهله. وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلَغَ من نظرك في استجلابِ الخراجِ، لأن ذلك لا يُدرك إلا بالعمارة. ومن طلب الخراج بغيرِ عمارة أخْربَ البلاد وأهلك العبادَ ولم يستقم أمره إلا قليلاً" (نهج البلاغة ٣: ٩٦).

وَضَعْ خطًا تحت عمارة الأرض، وهي باصطلاحاتنا الحديثة: التنميةُ وزيادةُ الإنتاج، ولا تحدث إلا مع اتساعِ قاعدةِ العمل وارتفاعِ مستواها.. بعبارة أخرى مع زيادةِ القوة العامِلة كمًا وكيفًا.. هذا بعضُ تفسيرِ قوله تعالى: ﴿ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا ﴾ الرحمة الآن هي العملُ والإنتاجُ وزيادةُ الاعتمادِ على النفس.

والقول الميسور هو حسنُ العلاقةِ بين القيادَات والقواعد، دون استهانةِ القواعدِ بالقيادات، ولا استعلاءِ القياداتِ على القواعد. ونحن عمليًا محتاجون إلى جُسورٍ كثيرة من القولِ الميسور.. أفقيًا بين العاملين في مستوى واحد، ورأسيًا في

خطوط السيطرةِ وتلقي التوجيهات من القيادات، والاقتراحاتِ من القواعدِ، وهي التي تمارسُ التنفيذ وهي الأدْرى بمشكلاته اليومية.

ننتقل بعد هذا إلى الآية التالية وهي قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ (الإسراء: ٢٩).

وهي عطف على قوله ﴿ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾

وأكاد أحس أن وضع الآية السابقة، وهي قول الله تعالى: ﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴾ وَسْط آيات النهي والتوجيه، شبيهةٌ بوضع آية الدعاء وَسْط آياتِ الصومِ وهي قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ (البقرة:١٨٦) ففي وَسْطِ آيات المسئولية تأتي هذه النَسَماتُ الربانيةُ من الرحمة والقرب والعونِ الإلهي.

كنا من قريب مع قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴾ وهنا قول الله: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ وفيه ما جاء عن التبذير والشياطين، والملامة والحسرة، جاءت نسمة ربانية في قوله تعالى: ﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴾

إن القرآن يخاطب جوانب متعددة في النفس: من الترغيبِ تارةٍ، ومن الترهيبِ تارة، يدعوك بالرحمةِ واليسر، ويُحَذرُك بالنُذُرِ وخوفِ الملامةِ والحسْرةِ.. ونفسك تتحرك خوْفًا من عِقَاب الله وطَمَعًا في رضوانِه، وهي في الحركتين متجهةٌ إلى الله.. كالطائر عندما يخفض جناحيه أو يَبْسُطُهما.. فالطيران قبضٌ وبَسْطٌ. وحركتُك إلى الله خوفٌ ورجاءٌ. والنفسُ بين الرحمةِ والرهبةِ.. وأنَّ إلى ربك المنتهى.

تعطينا الآية صورة تكاد تراهَا رأيَ العين: يدٌ مغلولةٌ إلى العُنُق غَير قادرةٍ على الحركة. اليدُ يدكُ والعُنُق عُنُقك. وأنت الذي تجعل "أي تُغّل يدك" فأنت المسئول. تقابلها صورة أخرى: يد مبسوطة كل البسط. والمقامُ المحمودُ في العطاء هو الوَسَط الواقع بين الإفراط والتفريط. وكلاهما غيرُ محمود. فالإنفاقُ والبذلُ

حقيقةٌ أحد طَرفيها الشحُ وهو مفسدة للمحتاجين ولصاحب المال، إذ يجر إليه كراهيةَ الناس إياه وكراهيتَه إياهُم. والطَرفُ الآخر التبذير والإسْراف وفيه مفاسدُ لصاحبِ المالِ وعشيرتِه وضياعٌ لحقِ أولادِه وأهلِه وهو مسئولٌ عنهم أمام الله وأمام الناس.

وقول الله: ﴿ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ جوابٌ لكلا النهيين، فالملومُ يرجع إلى النهي عن الشحِ، والمحسورُ يرجع إلى النهي عن التبذيرِ. والمحسورُ المنهوكُ القُوىَ. والمعنى: غيرَ قادرٍ على إقامةِ شئونك، والخطاب لغير معين، ولهذا أفاد الشمول، وتقعدَ هنا تفيد الاستمرار.. استمرار اللومِ إذا بَقى الشُحَّ، والحسرةُ إذا بقى الإسراف.

(١٥)

رزق الآباء والأبناء

يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾ (الإسراء: ٣٠).

يقول الله لنبيه: إن ربَّك يا محمد يَبْسُط رزْقَهُ لمن يشاء من عبادِه، فيوسّعَ عليه، ويقدِر على من يشاء فيجعلَ رزقه محدودًا وضيقًا. إن الله ذو خبرة بعباده. من الذي تصلِحَه السَعَة ومن تُفْسده؟ يفسر هذا قول الله تعالى: ﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴾ (الشورى: ٢٧).

وعلينا أن نُفَرِّقَ بين أمرين، وأن تكون التفرقَة بكَل وضوح، الأول: علمُ الله في بَسْط الرزق وقَدْره، وهذا هو العلمُ الإلهي، الثاني: واجبنا كَبَشر في عمارَةِ الحياةِ بالعملِ.

نعم: هناك مناطقُ تتوفر فيها مواردُ الحياة من مياه وتُرْبةٍ صالحةٍ للزراعة، ومراعٍ للماشية، وموارِدُ من الثروةِ المعدنية أو الغابات أو مصائدِ الأسماك.. ومناطقُ فقْرٍ وإقلال، شحيحةُ الموارد..

ولكن جهدَ الإنسان يستطيعُ - إلى حد غير بعيد - أن يُغيِّرَ من قيمةِ هذه الموارد، وأن يحسنَ أو يسيء استغلالها.. ثم يُحسن أو يسيء الإفادَة من عائداتها.

وإن الجهد البشري والإبداع ثروةٌ متزايدة القيمةِ باستمرار، ولا حدود منظورةً لقدرتها على النماء، وعلى التأثير على مكونات البيئةِ الطبيعية ومواردها. من أجل ذلك نرى انتقال مراكزِ الحضارةِ عبْر التاريخ. وهذا الانتقال هو ثمرةُ التفاعلِ بين الظروفِ الطبيعية والبشرية، لا على المستوى المحلي فقط، وإنما على مستوى أخذ الاتساع حتى شمل كوكَبنا الأرضي، ثم أخَذَ يغْزو الفضاء الخارجي.

كانت الحضارات القديمة مستقرة على ضفاف الأنهار كأودية النيل، والرافدين: دجلة والفرات، ونهر السند في شبه القارة الهندية، وأنهارِ الصين مثل اليانج تسي. ثم تحوّلت مراكز الحضارة الكبُرى إلى حوض البحر المتوسط، وعلى ضفافه قامت حضارات انبعث بعضُها من شواطِئه مباشرةً، وبعضُها أكّد

وجوده على هذه الشواطئ: هذه هي الحضاراتُ اليونانية والرومانية والإسلاميةُ. ولقد كان من أهداف الإسلامِ في تقدمه بعد أن سيطر على السواحِل الجنوبية للبحر المتوسط أن يتوغَل في حوضه من الشرقِ والغربِ والوسطِ: من الدولةِ البيزنطية شَرْقًا ومن صقلية وإيطاليا في الوَسَط، ومن الأندلس إلى غربِ أوروبا. . ولا زالت شواطئ البحر المتوسط من مناطق اللقاء أو الصراع الحضاري بين الحضارتين الإسلامية والأوروبية، في تقدمها باسم المسيحية تارةً، وباسم الاستعمار المباشر تارةً أخرى.

ولما تم كشفُ العالم الجديد وأمكن الدورانُ حول إفريقيا، انتقل مركز الثقل الحضاري العالمي إلى شواطئ المحيط الأطلسي والدول المطلة عليه: أسبانيا والبرتغال أولاً، ثم الصراع فيما بين الدول الأوروبية وتسابقها في السيطرة على مناطق الحضاراتِ القديمة والعالم الجديد معًا.. وفي طريقها دمّرت الحضارات القديمة في العالم الجديد، وكانت مزدهرة نامية مثل حضارات المايا والإنكا والأزْتِك.. وتوغلت في إفريقيا غربًا ووسطًا وشرقًا جنوبًا واكتسحت دولاً إسلامية وحضارات إفريقية قديمة، كما اصطدمت في آسيا مع حضارات الهند والصين واليابان. من هذه الحضارات من صمد في هذا الصراع وتمسك بأرضهِ وبأصولهِ رغم جراح المعارك، واستنزاف الثروات. ومنها ما داسته خيول المستعمرين ودمرته مدافعهم، ونهبته أطماعهم.

ودار الزمن دورةً ظهرت بها أهمية الدول المطلةِ على المحيط الهادي مع الأهمية السابقة للأطلسي، وبرزت من وسط الكتلة الأوروبية الأسيوية قوة الاتحاد السوفيتي كعملاق شرقي، يقابل العملاق الأمريكي، وتراجعت نسبيًا قوةُ دول غربِ أوروبا.. ثم ظهرت اليابانُ مرتين.. مرة أولى برز فيها الوجهُ العسكريُ مع القوة الاقتصادية، قبل الحرب العالمية الثانية وهذه حسمتها القنبلة الذرية على اليابان (هيروشيما ونجازاكي) عام ١٩٤٥، ثم الوجهُ الاقتصاديُ التقْني المتقدمُ الذي أخذ يهدد الصناعَة الأمريكية والأوروبية في عقر دارها.. وكان السلاح الأكبر لليابان في هذه المعركة الثانية هو الفكر والإبداع.. الإبداع الذي يتحدى ذاته بالتفوق على نفسه ويسابق ويسبق الإبداع الغربي في عدة مجالات، أكدت بها اليابان وجودها كدولة اقتصاديةٍ وقوةٍ عظمى.

وتعددت في عالمنا المعاصر المراكز الحضاريةُ المتقدمةُ على جبهة تمتد من اليابان شرقًا إلى الولايات المتحدة وكندا غربًا، مرورًا بالاتحادِ السوفيتي وشرقِ أوروبا وغربها وتعبر المحيط الأطلسي إلى المواطن الجديدة.

هذا إلى سلسلة من الكواكب الاقتصادية الأصغر حجمًا والتي تُسَجّل تقدمًا مطردًا مع تباين في الحجم والقدرة مثل كوريا الجنوبية وتايوان وجزيرة هونج كونج وسنغافورة (وهي التي يسمونها النمور الأربعة).

وقضية الإسلام المعاصر هي وجوبُ قبوله التحدي الحضاري الكبير وتأكيد وجودهِ بالعمل والإبداع والتعاون.

إن العالم الإسلامي يسيطر على منطقة مركزية في العالم القديم، يمكن أن نعتبرها قارةً إسلامية وسْطى: جسمُها الأكبر في آسيا وأفريقيا ومنها أجزاء في أوروبا.. ولها مراكزُ متقدمة في بقية أوروبا وفي العالم الجديد بقطاعاته الثلاثة: الشمالي والكاريبي والجنوبي، وفي استراليا ونيوزيلنده.. وهناك جاليات إسلامية جديدة استطاعت أن تزرع نفسها وتمد جُذورها في هذه المناطق الجديدة المتقدمة.

ويقابل هذا مناطقُ فقْر في العالم الإسلامي أبرزها القطاعُ المطلُ على الصحراءِ الكبرى في غرب إفريقيا، حيث تزحفُ الصحراء ومعها الموتُ الصامتُ تغتال الأرضَ الزراعيةَ وبقيةَ المراعي، ويتراجعُ السكان أمامها إلى الجنوبِ حيث يحدث قَلَق سكاني بين المقيمين والوافدين إليهم. وهناك مناطقُ فقْرٍ أخرى، في آسيا من أبرزها بنجلاديش حيث الأرض الزراعية القليلةُ الارتفاعُ مهددة دائمًا بفيضان النهر.

وهناك مناطقُ حضارية قديمة كالرافِدين والشام ومصر وشمال إفريقيا، ومناطق ثروات جديدة قابلة بطبيعتها للنفادِ كموارد البترول.. وتهددها ـ جزئيًا ـ من ناحيةٍ أخرى الجهود العلمية التي تبذلها الدول المتقدمة لابتكار موارد جديدة للطاقة..

وأنت ترى بهذا أن كل قطر من هذه الأقطار الإسلامية لا يستطيع أن يقف وحده في معركةٍ حضارية ضخمة، ولابد من تعاون بين أبناء الإسلام.. وأنت ترى حركة التاريخ الضخمة، وقد رأينا فيها صورة من قول الله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (آل عمران: ٢٦) ولكن كُلَّ هذا بحكمة وأسباب ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ (الرعد: ١١).

فالتغيير في المجتمع والحركة في التاريخ وانتقالُ مراكزِ الثقل الحضاري، وظهورُ الدول وأفولها.. كل هذا نستحضره في أذهاننا ونحن نقرأ قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾

البسطُ والقَدْر، أمران نراهما في العصر الواحد، ونراهما على امتداد التاريخ. ولكن الله جعل للتغيير قوانينه. وعلينا أن نبذل الجهودَ حتى نكون في الحياة من أقدار الخير والإنتاج والإبداع.

وأحب أن أستعيد كلمة للشاعر الإسلامي الكبير محمد إقبال رحمه الله يقول فيها: "إن المؤمنَ الضعيف يحتج بقدَر الله. أما المؤمن القوي فهو من أقدَار الله في أرضه، يُنفِذُ الله به مشيئته".

هذا الامتداد الضخم الذي رأيناه في عهد الفتوح الإسلامية، وهذا الإبداع الحضاري، كل هذه من أقدار بسْطِ الرزق الإسلامي.. وهذا التنازع الذي يصطلي بناره المسلمون هو أقدار القبض والمسغبة.. فلنفتح أبواب الخيرِ بمفاتيحِ العمل والإنتاج والتعاون،

﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (يوسف: ٩٠).

(١٦)

ولا تقتلوا أولادكم

يقول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴾ (الإسراء: ٣١).

كان بعضُ أهلِ الجاهلية يقتلون أولادَهم خشية الفقرِ، فوعظهم الله في ذلك. وأخبرهم أن رزْقهم ورزقَ أولادِهم على الله.

والفرقُ بين الخِطْأ، والخَطَأ: أن الخِطْأ هو الذي يفعله الإنسان متعمدًا، والخَطَأ ما وقع عن غير عمد.. ومن قول العرب: خطِئتُ إذا أذنبت تعمدًا، وأخْطَأتُ إذا كان عن غير عمد.

ولقد جاء النهي عن قتل الأولاد في وصايا سورة الأنعام بصياغة أخرى.. وهي الوصايا التي تبدأ بقوله تعالى:

﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ (الأنعام: ١٥١).

ولنتأمل في الآيتين:

آية الإسراء: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾

آية الأنعام: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾

في آية الأنعام: الإملاق قائم، والله يقول: ﴿ مِّنْ إِمْلَٰقٍ ﴾ فالآباء هم المحتاجون إلى الرزق أولاً.. ولهذا جاء ذكرهم مُقدمًا في الآية، وهذا قول الله: ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾

في آية الإسراء: الإملاقُ غير قائم. وإنما هو مستقبل يخشاه الوالدان. ولهذا قدّم الله رزق الأبناء فقال: ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾

ويجمع بين الآيتين ذكر سبب الوأد، وهو الإملاق، مع تفريعه إلى إملاقٍ قائم، وإملاقٍ متوقعٍ ومرهوب.

ويرد النهيُ عن الوأد في سياقاتٍ قرآنيةٍ أخرى تمس النفس الإنسانية من زوايا لا تقتصر على الجانب الاقتصادي وحده، وإنما تخاطب أعماقها وآفاقها، ونقرأ معًا في سورة التكوير من مشاهِد القيامة وحسابها ﴿ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴾ (التكوير: ٨، ٩).

ولكي تبدو بشاعةُ هذه الجريمة في حق نفس بريئة، تعال معي نقرأ هاتين الآيتين في سياقهما القرآني، وما قبْلهُما، وبعض ما بعدَهما، لنرى عظمة وهوْل المشاهد التي وُضعت جريمة الوأد وسَطَها. يقول الله تعالى: ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝١٠ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ۝١١ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝١٢ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝١٣ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴾

هذا الهول العظيم: تكويرُ السماءِ وانكدارُ النجوم وتسييرُ الجبال، وتعطيلُ العشار، وحشر الوحوش، وتسجير البحار أي إلهابها نارًا، وجمعُ النفوس.. كل هذه قدرات إلهية جبارة.. ووسط هذا الحشد نرى سؤال الموءودة عن سبب قتلها. وبعد أمر الموءودة نقرأ في الصحف المنشورة والسماء المكشوفة، والجحيم المسعرة والجنة المُزلفة. ثم خاتمة المشهد، عَلِمت نفس ما أحضرت.. ولا ترى جريمة إنسانية بارزة وسط هذا المشهد، إلا هذه المظلومة الموءودة. أرأيت احترام الإسلام للحياة، واحترام الإسلام للبنات.. بحيث جعل جريمة الوأد هي الجريمة البشرية الوحيدة البارزة في هذا المشهد.

نعم هناك مشاهد أخرى تبرز فيها جرائم أخرى.. ولكن هنا، ومع التأمل، نرى في هذه الكلمات الست ﴿ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴾ نرى أمْرًا نفسيًا عميقًا. كنا نتصور أن يكون السؤالُ للقاتل وإن كان الوالد، وهو الذي قام بهذه الجريمة، مهما تكن الأسباب التي سوّلتْ له ذلك، ولكن أن يكون السؤال لهذه الموءودة.. هي التي تُسأل عن الذنب الذي قُتلت به.. ولا ذنب. فقْرُ الوالد أو خوْفُ الفقر. وماذا تنتظر في الإجابة؟ وهل كانت الصغيرةُ في سن تسمح لها بمعرفة الأوضاع الاقتصادية للأسرة في حاضرها ومستقبلِها؟ والأب شاهد. والسؤال ليسَ له.. كأنه نكرةٌ ضائعة، ولا ضياع لشيء يوم القيامة ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ (الزلزلة: ٧، ٨).

آية رابعة، يدافع بها القرآن عن حق الحياة بعامة، وحق البنات بخاصة: يقول الله عن سكان الجزيرة العربية قبل الإسلام: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨ يَتَوَارَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ (النحل: ٥٩، ٥٨).

ويصف ربنا في هذه الآية الأثرين الظاهر والباطن في الأبِ إذا بُشِّر بالأنثى: أما الظاهرُ فالوجه الذي اسودّ. وأما الباطن فالحزن المكظوم. ثم يضيف إليهما بعدًا ثالثًا: هو أن يتوارى من قومه من سوء ما بُشِّر به.. وانظر بعد هذا إلى قول الله تعالى ﴿ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ... ﴾ إن الحديث عن أنثى. والضمائر في الآية لمذكر.. وهذا النقل جاء في الجملة السابقة من الآية: ﴿ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ﴾ هنا نقل الضمير من الأنثى إلى المذكر.. كأن من كراهية التأنيث

لا يُستخدم ضميرٌ مؤنث.. وتحولت الأنثى إلى مصاب وبلاءٍ وهو اسم مذكرّ ﴿ أَيُمۡسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمۡ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِ ﴾

آية خامسة جامعة، هي قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾ (النساء: ١).

فالله خلقنا جميعًا من نفس واحدة.. ومن هذه النفس الواحدة خلق زوجها. والأصل واحد. ومنه جاء الزوج. وبث منهما رجالاً كثيرًا ونساءً. فكأن الذي يقْتُل الأنثى إنما يقتل بعضَ نفسه، وبعض أصله، لا مجرد فرعه.. الوأد بهذا اعتداءٌ على أصل الوجود، وعلى الوجود، وعلى مستقبل الوجود.. أرأيت مدى دفاع القرآن عن المرأة، لا باعتبارها مجرد أنثى، وإنما باعتبار حق الحياة، واعتبار ذلك عدوانًا على الناموس الذي أقام الله عليه الحياة، وصدق الله العظيم ﴿ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ﴾ (النجم:٤٥).

ويرتبط بهذا حقوقها في الرعاية: صغيرةً وفتاةً: إعدادًا للحياة: دينًا وخُلُقًا وتعليمًا، حتى تستطيع أن تقوم بدورها، ابنة وأختًا، وأمًا، ومشاركة في عمارة الحياة وإثرائها.

هذه المشاركة في العمل والجزاء نقرؤها في قول الله تعالى في خواتيم سورة آل عمران: ﴿ فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ ﴾ (آل عمران: ١٩٥).

وفي قوله تعالى مبيِّنًا أولاً دور أمهات المؤمنين في المساهمة في نشر العلم، ثم ثواب عمل كل من الرجال والنساء:

يقول عن نساء النبي: ﴿ وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ (الأحزاب: ٣٤) وآيات الله هي القرآن. والحكمة هي السنة النبوية المطهرة.

ثم يقول تعالى عن رجال ونساءِ المجتمع الإسلامي: ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (الأحزاب: ٣٥).

ثم بيّن موقف كُلٍّ من الرجال والنساء من طاعة الله ورسوله فقال بعد هذه الآية مباشرة: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾ (الأحزاب: ٣٦).

بل إن الذين يحملون عرش الرحمن يستغفرون لمن آمن: يستوي في هذا الذكور والإناث ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (غافر: ٧ ـ ٩).

(١٧)

ولا تقربوا الزنا

يقول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾(الإسراء: ٣٢).

وهذه الآية عطفٌ على وأد البنات، وفي الزنا إضاعةُ نسب النسلِ إن جاء، بحيث لا يُعْرف للنسل مرجعٌ يأوِي إليه، وهو يشبه الوأد في الإضاعة.

وجاء النهي بصيغة الجمع كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ﴾ والمنهي عنه هنا كان من غالب أحوال أهلِ الجاهلية.

والقُرْبُ المنهي عنه هو أقلُ الملابسة، وهو كنايةٌ عن شدةِ النهي عن ملابسةِ الزنا (التحرير والتنوير: ١٥: ٨٩ ـ ٩٠).

وفي الاصطلاح القرآني تفرقة بين الزنا والبغاء. الزنا هو ارتكاب هذه الكبيرة مع امرأة حرّة غير حليلة. والبغاء ارتكابها مع الإماء. وكان بعض أهل الجاهلية يكرهون فتياتهم ـ أي إمائهم ـ على البغاء.

وإذا كانت هذه التفرقة الاصطلاحية لبيان أمر الجاهلية، فإن القرآن يعتبر "الزنا" مهما تكن صورته من الكبائر.

وجملة ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً ﴾ فيها تأكيدٌ بحرف التوكيد "إن"، وفعل "كان" الدال على رسوخ الوصف واستقراره مثل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾

وأتْبع هذا بقوله: ﴿ وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ والسبيل هو الطريق وكأنه أسلوبٌ لحياة فرد. وجاء نظير ذلك في آية سورة النساء والنهي عن زواج امرأة الأب بعد فراقها بالحياة أو الموت ﴿ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ (النساء: ٢٢).

وللإسلام حكم عميقة في تحريم الزنا، بعضها قديم، ولا زالت الكشوف العلمية تُظهر فيه جديدًا.

أما القديم فضياع النسبِ، وتعريضُ النسل للإهمال. وفيها إفسادُ للأسر، وهدم للقيم الأخلاقية، وتخريب المجتمع الذي تصل عداواته إلى القتل واشتعال الثأر، واستغلال فقر الفقيرات عن طريق الإغراء بأموال القادرين.

وإذا كان للجانب الصحي نصيبه الكبير في تحريم الزنا فلقد برهنت البحوث الحديثة على أخطاره الآخذة في الازدياد ومن أبرزها الآن مرضٍ نقص المناعة الذي يترك الجسم دون خطوط دفاع أمام الأمراض، ويجعله عرضة للموت القريب والأليم.. هذا إلى الأمراض الوراثية المعروفة من قبل، والتي تنتقل هي ونقص المناعة عن طريق الزنا إلى الأبرياء من الأهل والذرية والصغار الذين يخالطون المصاب في حياته اليومية.

ولقد دعا الإسلام إلى الطهارة في الحياة والطهر الأخلاقي، ونصح الشاب بأمرين: إما الزواج المبكر إذا كان قادرًا عليه، وإما العفة وهذه يصل إليها بأمور أهمها:

أولاً: العبادة والتوجه إلى الله وبخاصةٍ الصلاة التي يذكر بها ربّه، وتزكو بها نفسه، والصوم وهو للإنسان حصن ووقاية.

ثانيًا: ما يسمى علميًا بالاستعلاء بالغريزة. وذلك بتحويل الطاقة الحيوية إلى التنافس المشروع في مجالات العلم وفي الرياضة البدنية.

ثالثًا: الصُحْبة الطيبة وهذه عميقة الأثر في تكوين الشباب. فالأب يكون قدوة لولده في بيته، في احترامه للأخلاق ممارسة وقولاً، وفي تكوين مكتبته وقراءاته، وفي تعليم ولديه بالتدريج، التغيرات التي تحدث له جسميًا ونفسيًا عندما يبلغ سن المراهقة. وأن يكون له صديقًا كبيرًا. البنات مع الأم، والأولاد مع الأب.

رابعًا: تعويد الشاب من الصغر على غشيان المسجد وحب بيت الله. فالصلاة في المسجد لها روحانية وأثر في التكوين النفسي، غير صلاة المنفرد في بيته. هذا مع مراعاة ظروف الأبناء وأوقات المذاكرة وتوزيع المسئوليات، فلا أقل - إذا كان المسجد قريبًا - من صلاة المغرب أو العشاء في جماعة. ففيها دين، وشيء من الرياضة، والتعرف بإمام المسجد والصالحين من أبناء الحي الذي يسكنه الشاب.

خامسًا: تبصرة الشباب علميًا وعن طريق مراجع طبية مبسّطة بأخطار الممارسات الجنسية خارج النطاق الذي شرعه الله، وهو الأسرة.

سادسًا: التعود على غض النظر عن محارم الله. فكل فتاة هي له أخت. ولها والد ووالدة وإخوة. وتعارف الأسر في الحدود الشرعية التي بينتها السنة المطهرة أمر وارد. وهي مقدمات طيبة لتكوين الأسر الصالحة من شباب صالحين.

ولا زلت أذكر رحلة استطلاعية إلى قطر في أوروبا الغربية، وكان هذا من أكثر من عشرين عامًا، ودار الحديث بيننا وبين مسئول كبير فيها حول موضوع واحد:

كيف استطعتم أن تحفظوا على شبابكم حب الإسلام، وكثرة التردد على المساجد؟ لقد قمنا بإحصاءات في بعض العواصم الإسلامية، ومن بينها القاهرة، ووجدنا أن بعض المساجد الكبيرة لا تمتلئ فقط، وإنما يصلي الشباب في الطريق حول المسجد، ويحضرون معهم ما يبسطونه على الأرض للصلاة، ويتحملون برد

الشتاء وحر الصيف. ونحن نبني لهم هنا كنائس حديثة مكيّفة ولا نجد هذا الإقبال؟

كان يتكلم وذهني يردد قول الله تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (الحجرات: ٧، ٨).

وعقب على هذه المقارنة بقوله: إن عندكم الأساس الأخلاقي، فلو أضفتم إليه العلم الحديث، استطعتم بناء حياتكم على قواعد سليمة. أما المشكلة الكبرى التي نقابلها فهي: إن عندنا فراغًا أخلاقيًا نخشى أن يتسع. ولا يمكن أن يملأه إلا الدين. أن التقدم العلمي عندنا محتاج إلى ضوابط أخلاقية.

وفي حديث القرآن عن النهي عن الزنا.. علينا أن نربط بهذه الآية كل الانحرافات الأخلاقية التي تهاجم أخلاق الشباب.

وإذا كان الزنا استنزافًا شريرًا لحيوية الشباب، وتعريضًا مباشرًا له لأخطر الأمراض التي لا يعود أثرها عليه وحده، وإنما يمكن أن يهدد الأبرياء من أهله وأسرته، فإن أي استنزاف آخر يمكن ـ دينًا ـ أن يُلحق به. ومن هنا تبدو خطورة المخدرات والخمور بأنواعها.

ولنذكر أن المخدرات الآن أصبحت من أخطر الأسلحة الدولية التي تهدد مجتمعات متقدمة ونامية معًا.. وإذا كانت المجتمعات المتقدمة فيها من مصادر القوة ووفرة العدد ووسائل المقاومة ما يجعلها قادرة على الصمود في هذه الحرب الدولية، فإن دولنا الصغيرة، والفقيرة نسبيًا، والأقل حصانة علميًا وأمنيًا ـ عليها أن تكون أكثر حذرًا.

إن المسئولية الأولى ـ فيما أؤمن ـ يحملها الشباب أنفسهم. هم الذين يستطيعون أن يكونوا حصون الأمان، وأن يقاوموا في أنفسهم وفي أصدقائهم وجيرانهم أي تسرب لهذه السموم التي أخذت تغزو العالم العربي والإسلامي بموجات آخذة في الارتفاع وبوسائل شريرة، يقدمون فيها التجربة الأولى مجانية، ثم يتدرجون مع المدمن حتى يتحول إلى موزّع ثم ناقل للمخدرات، ثم مجرم محترف يمكن أن يرتكب أي جريمة في سبيل الحصول على المخدر الذي عوّدوه عليه.

إنها حرب.. فلنتعاون جميعًا شعوبًا وحكومات على الانتصار فيها.. والانتصار فيها هو نصر لنا جميعًا وللأجيال الجديدة. وما ذلك على الله بعزيز.

(١٨)

ولا تقتلوا النفس التي حرّم الله إلا بالحق

يقول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴾ (الإسراء: ٣٣).

إن حفظ النفس من أعظم القواعد الكلية للشريعة الإسلامية. وهذه هي الوصية العاشرة بعد الوصايا التسع السابقة نتذاكرها معًا وهي: أولاً: عبادة الله، ثانيًا: الإحسان إلى الوالدين. ثالثًا: إيتاء ذي القربى، رابعًا: والمساكين، خامسًا: وابن السبيل، سادسًا: النهي عن الشح، سابعًا: النهي عن الإسراف، ثامنًا: النهي عن قتل البنات، تاسعًا: النهي عن الزنا.

والمقصود بالنفس هنا الإنسان ذاته. والقتل: الإماتة.. بفعل فاعل. والله جعل قتْلها حرامًا وعلّق التحريم بعين النفس. واستثنى من ذلك أن يكون القتل بحق. وهذا الحق بينته السنة النبوية.

ويذكر الطبري في شرح هذا الحق: "وحقها: ألا تُقتل إلا بكفر بعد إسلام، أو زنًا بعد إحصان، أو قَوَدٍ بِنَفْس، وإن كانت كافرة لم يتقدم كفرها إسلامٌ.

ويذكر بعد هذا حديث قتادة: وإنا والله ما نعلم بحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: إلا رجلاً قَتَل متعمدًا، فعليه القَوَد، أو زنى بعد إحصانه، فعليه الرجم، أو كفر بعد إسلامه، فعليه القتل.

ويعود، هذا إلى موقف أبي بكر في حروب الردّة. ومرجعنا تفسير الطبري أيضًا: ويروى عن عروة بن الزبير أو غيره: قيل لأبي بكر أتقتل من يرى أنه لا يؤدي الزكاة، قال: لو منعوني شيئًا مما أقرّوا به لرسول الله ﷺ لقاتلتهم. فقيل لأبي بكر: أليس قال رسول الله ﷺ: "أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله" فقال أبو بكر: "هذا من حقها" (تفسير الطبري ١٥: ٨٠ ـ ٨١).

وحروب الردة كانت ـ بحق ـ الولادة الثانية للدولة الإسلامية، ففي عهد المصطفى عليه الصلاة والسلام أحست الجزيرة العربية لأول مرة أنها تحت قيادة واحدة، وأن عاصمتها المدنية. ورأت بعض القبائل الحديثة عهدًا بالإسلام أن الرآسة كانت للمصطفى باعتباره نبيًا، وأنهم كانوا يؤدون الزكاة له لا لقاعدة الدولة في المدينة. هذا كان تفسيرهم لقول الله تعالى: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (التوبة: ١٠٣، ١٠٤).

وتساءل بعضهم: من يصلي علينا بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام؟ وكان من الممكن لو تراخى أبو بكر في هذا الأمر، أن تنحلّ رابطة الإسلام في الجزيرة، ويصبح إسلامًا حدوده القبيلة لا الدولة المركزية. فكان الخلاف أساسًا حول صورة الدولة، وأن الزكاة وهي الركيزة الاقتصادية للدولة، ومن قواعد الإسلام، والرباط بين الأغنياء والفقراء، من وظائف الدولة المركزية، وليست كزكاة الفطر يقوم بها الأفراد فيما بينهم، أو كالصلاة يؤدونها جماعة، ومنهم الإمام والمأموم.. وقد تعينهم الدولة بقارئ أو فقيه.

الدولة لها نظامها الاقتصادي، وسنرى بعد هذا كيف أقام أبو بكر نظامها العسكري الذي يحميها داخليًا، وينطلق بالإسلام خارج الجزيرة العربية.

ومن هنا تبدو أهمية حروب الردة، وكيف أنها كانت أول صورة لجهاد ينطلق فيه أحد عشر جيشًا من قاعدة مركزية، ليغطي الجزيرة العربية: جيشان في الجبهة الشمالية وثلاثة في نجد، وثلاثة في الخليج، واثنان في اليمين، وجيش إلى سُليْم وهوازن في جنوب شرق المدينة.. قادها جميعًا المهاجرون، بينما تولى أهل المدينة حمايتها من أي غارة خارجية.. وإذا كانت المغازي النبوية متتابعة فإن حروب الردة متزامنة. وكانت أول حرب داخلية بين المسلمين. ولكنها ـ كما سبق القول ـ كانت الولادة الثانية لدولة الإسلام، والانطلاقة نحو الفتوح، وبخاصة في جبهتي فارس والروم.

أما النصف الثاني من الآية وهو قوله تعالى: ﴿ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴾ هذا الجزاء يمكن أن نتناوله من زاويتين: أحكامه العامة ثم تطبيقاتِه التاريخية. وأخطرها "الفتنة

الكبرى" التي استشهد فيها ذو النورين الخليفة الثالث سيدنا عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ وما تبعها من صراع بين قيادة الدولة ممثلة في الخليفة الراشد الرابع سيدنا علي بن أبي طالب ـ كرم الله وجهه ـ وبين بني أمية بقيادة معاوية بن أبي سفيان وكان وقتئذ واليًا على بلاد الشام، وحمل هذه المسئولية من عهد عمر بن الخطاب، وكلهم عاش مع المصطفىﷺ، ورضي الله عن أصحابه أجمعين.

ويرجحّ الطبري ما قاله ابن عباس في تفسير السلطان: إن لوليّ القتيل القتل إن شاء، وإن شاء أخذ الدِّية، وإن شاء العفو، لصحة الخبر عن رسول الله ﷺ، أنه قال يوم فتح مكة: "ألا ومن قتل له قتيل فهو بخير النظرين: بين أن يَقْتُل أو يأخذ الدية".

وقول الله تعالى: ﴿ فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِ ﴾ يقول مخاطبًا الرسول والأئمة من بعده، باعتبارهم منفذين لهذه الأحكام: فلا تقْتُل بالمقتول ظلْمًا غيْرَ قاتله. وذلك أن أهل الجاهلية كانوا يفعلون ذلك: إذا قتل رجلٌ رجلاً عمد ولي القتيل إلى الشريف من قبيلة القاتل فقتله بوليه، وترك القاتل. فنهى الله من ذلك عبادة. فلا يقتل بالمقتول إلا قاتله، ولا يُمثل به بعد قتله.

ويروي ابن جرير حديث رسول الله ﷺ عن قتادة: "إن من أعْتى الناس على الله جل ثناءه ثلاثة: رجل قتل غير قاتله، أو قتل بدَخنٍ في الجاهلية، أو قتل في حرم الله" (والدخن فساد باطن تحت صلاح ظاهر أو هو أحقاد مكتومة).

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴾ هو ولي القتيل، وقد أمكنه الإمام من الاختيار بالقتل أو الدية أو الصفح. وهو منصور لأن الله جل ثناؤه قضى في كتابه المُنزّل أنْ سلّطه على قاتل وليه، وحكّمه فيه، وكفى بذلك نُصرةً من الله.

هذا من ناحية النص القرآني. أما من حيث التاريخ، فقد رأى بنو أمية أنهم أولياء دم عثمان لأنه أموي.

وآثر سيدنا علي أن يبدأ بجمع كلمة المسلمين، خصوصًا وأن الثوار كانوا في المدينة، وهم من الأمصار ولهم مؤيدون من قاعدة الإسلام. ولكن الزمان كان قد تغيّر. الأمويون الذي رأوا أنفسهم أولياء الدم، عليهم أن يطيعوا سيدنا عليًا بوصفه أمير المؤمنين، وأن يدعوا الأمر له، دون أن يحددوا أولويات التصرف، وظهر الخوارج ناقمين على كل من علي ومعاوية، وافترقوا فرقًا تتباين مواقفها من مجرد الرأي، إلى حمل السلاح، حتى ربت فِرقُهم على السبعين.

ولكن نود أن نقف في هذه الفتنة عند أمر واحد، وهو أن ولي الدم هنا كان خيرًا له، إن ترك الأمر لقيادة الدولة، تضع لنفسها أولوياتها، ويكتفي بالرأي دون الحرب. فالقتل قتْل، والعدوان كان على رأس الدولة، والمنطقي أن يتولى رأس الدولة الجديد مسئوليته دون أن يكون تحت ضغوطٍ عسكرية من الولاة وكبار الصحابة، وهو ما حدث فعلاً، وأدى إلى هذا الصدع في الكيان الإسلامي الذي لا زلنا نعاني من آثاره حتى اليوم، وورثته أجيال ما شهدت هذا، ولا رضيت به، وما أشدَّ حاجة المسلمين إلى الاعتبار بما حدث، وأن يدعوا الفرقة إلى الوحدة، والتنازع إلى التعاون، ليفرغوا لمسئوليات الحاضر والمستقبل، دون أن تجرفهم أمواج الماضي بكل ما فيها من أحقاد وثارات.

(١٩)

ولا تقربوا مال اليتيم

يقول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ﴾ (الإسراء: ٣٤).

هذه هي الوصية الحادية عشرة. ولقد كان في العرب قبل الإسلام ـ ولا زال باقيًا مع الأسف عند البعض ـ من يستحل أموال اليتامى لضعفهم عن التفطن لمن يأكل أموالهم، وقلة نصيرهم لإيصال حقوقهم، فحذر الله المسلمين من ذلك لإزالة ما عسى أن يبقى في نفوسهم من أثر ذلك السلوك الجاهلي. ولقد جاءت هذه الوصية أيضًا في سورة الأنعام.

يقول الماروديّ وهو يشرح حق اليتيم ورعاية ماله في سورة الأنعام: (تفسير النكت والعيون للماروردي: ١: ٥٧٧)

في قول الله: ﴿ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ أربعة تأويلات:

أحدها: حفظ ماله عليه إلى أن يكبر ليتسلمه.

الثاني: التجارة به.

الثالث: ألا يأخذ من الربح إذا اتجر له بالمال شيئًا.

الرابع: أن يأكل الولي بالمعروف من ماله إذا افتقر، ويترك إذا استغنى، ولا يتعدّى من الأكل على لباس ولا غيره.

ويحتمل خامسًا: حفظ أصوله وتثمير فروعه.

وقوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥ ﴾ الأشُدّ استحكام القوة والشباب وبلوغ سِنِّ التكليف.

ويقول الله تعالى في سورة البقرة: ﴿ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡيَتَٰمَىٰۖ قُلۡ إِصۡلَاحٞ لَّهُمۡ خَيۡرٞۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعۡنَتَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴾ (البقرة: ٢٢٠).

وكلمة "إصلاح" في الآية تفيد كل أنواع الإصلاح: الذاتي المتعلق بحسن الرعاية والتربية، والاجتماعي المتعلق بالبيئة الطبيعية التي يوّفرها له الولي، ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، والاقتصادي المتعلق بحفظ ماله وتثميره إن استطاع، وإن كان الولي فقيرًا أكل من مال اليتيم بالمعروف.

ولقد بلغ من ورع الصحابة أنهم كانوا يرعون اليتيم دون أن يخالطوه مخافة أن يأكلوا من ماله، أو يأخذوا من طعامه.. وفي هذا عزلة لا تتفق مع حسن الرعاية، ولهذا جاء قول الله تعالى: ﴿ وَإِن تُخَالِطُوهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ ﴾ وإن هذا ينفي العَنَتَ والحرج عنكم وعن اليتامى معًا.

ولقد وصانا المصطفى عليه الصلاة والسلام باليتامى في سنته المطهرة: ومما جاء في حق اليتيم وثواب حسن رعايته:

"أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا، وأشار بالسبابة والوسطى، وفرّج بينهما" أخرجه البخاري والترمذي وأبو داود عن سهل بن سعد ـ رضي الله عنه.

"من قبض يتيمًا من بين المسلمين إلى طعامه وشرابه أدخله الله الجنة البتّة، إلا أن يكون قد عمل ذنبًا لا يغفر" أخرجه الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنه" (مرجع الحديثين تيسير الوصول إلى جامع الأصول للشيباني ١: ٦٠).

ومع الترغيب والترهيب نقرأ في كتاب الله تعالى: ﴿ وَلۡيَخۡشَ ٱلَّذِينَ لَوۡ تَرَكُواْ مِنۡ خَلۡفِهِمۡ ذُرِّيَّةٗ ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيۡهِمۡ فَلۡيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡيَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدًا ۝٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا ﴾ (النساء: ٩، ١٠).